الفصل الثانى

التربية والثقافة الاغريقية

مدخـــل :

على دارس تاريخ التربية ألا يدهشبى للوفرة فى المادة العلمية التى يجدها عن حياة اليونان القدماء وفلسفتهم وتربيتهم ، فالكتب الغربيةالتى تناولت التربية وتطـــورها بالبحث والشرح والتعليم ، أبت ألا أن تعطى الاغريق نصيب الأسد ، وقد يقول بعضهم ان وفرة ما عندهم من مصادر عن هذه الفترة فى حياة البشرية مع ازدهار للحياة الفكرية فى المدن الاغريقية تحتم عليهم أن يفردوا لها مكان الصدارة ، على أن بعض الدارسين يرون فى هذا تحيزا من غربى لغربى ، ويهتفون صائحين بأن يبمم مؤرخو التربية وجوههم شطر الشرق ، وسوف يجدون فيه الكثير من الفكر الذى يستحق كل عناية فى وقت سبق فيه الشرق الاغريق بأكثر من عشرين قرنا ٠

وتقع اليونان على حافة العـــالم الغربى متوسطة الشرق والغـــرب ، ولم تتقابل حضارتا الشرق والغرب على أرض اليونان القديمة فحسب ، بل ان هذه الأرض ذاتها فجرت ينابيع من الحكمة والفلسفة سالت على الشرق ثم أغرقت الغرب اغراقا ما عاد بعده بمستطيع أن يقبل مزيدا من التراث الفكرى الذى خلفه الشرق ، وتمر قرون طويلة قبل أن يتطلع الغرب حواليه ثم يمد عنقه الى الشرق الغامض يتأمل ــ فى حذر شديد ــ فى أديانه وتعاليمه ونظراته للحياة الدنيا والآخرة ٠

واليونان شبه جزيرة تمد أصابعها وجزرها فى البحر المتوسط بمناخه المعتدل الداعى الى حرية الحركة ٠ وليس شبه الجزيرة سهلا يرمح فيه الانسان والحيوان كيفما شاء ، بل جبالا ووهادا تتطلب مشقة وعملا وجهدا جسميا ٠ وعلى أرض شبه الجزيرة تناثرت دول أطلق على كل منها « مدينـــة دولة » City State ولكل منها نظامها وقوانينها وتشريعاتها وأطماعها ٠٠٠

ولم تعرف اليونان القديمة وحدة ، واختلفت بين مدنهـــا الأنظمـــة الحكومية ، بين ديمقراطية واستبدادية ممعنة فى جبروتها ٠

وتمثل أسبرطة وآثينا نوعين متمايزين من الثقافة الاغريقية ، ويتخذهما المؤرخون والمربون نموذجين للحياة والتربية الاغريقية ومن هنا كان ضروريا أن نقف على فلسفة ونظام التعليم فى كل منهما :

اسبرطة(١) :

كان الغازى اذا أخضع مدينة لسيطرته أصبح السيد الحر ٠ أما الذين حلت عليهم الهزيمة فهم عبيد يأتمرون بأوامر الأحرار ٠ والحر هو من يفكر لنفسه والمتمتع بالحقوق السياسية وصاحب الأنشطة الرفيعة ٠ وهو الذى يتعلم ويحذق الفن والشعر والموسيقى والأدب ٠ وقد غـــزا الأسبرطيون لا كونيا واستقروا فى كبرى مدنها (اسبرطة) متسيدين عـــلى البيريوكى والهيلوت السكان الأصليين ٠ وبيريوكى تعنى « السكان المتجولين فى الأنحاء المجاورة » ، وهذا كان حالهم ، فقد تناثروا على مشارف اسبرطة فى مدن صغيرة بلغت حوالى مائة مدينة ، وكانوا أرقى من الهيلوت Helots وهم العبيد فقد تمتعوا ببعض الحقوق المدنية والسياسية وكونوا الطبقة المتوسطة التى بلغ عدد أفرادها حوالى ١٣٠٫٠٠٠ فى حين كان العبيد الهيلوت حـــوالى ٢٢٥٫٠٠٠ ، أما الاسبرطيـــون الســـادة فكان عددهم حـــوالى ٤٥٫٠٠٠ سيدا(٢) ، وكانت مهمة العبيد خدمة أسيادهم ، أما البيروكى ومنهم ملاك وتجار وصناع ، فكان عليهم دفع ضرائب باهظة ، للاسبرطيين السادة(٣) ٠

وكانت سياسة أسبرطة تقـــوم على التفوق العسكرى لتظل للســـادة السيادة على بقية السكان ٠ ولهذا تكون نظامهم التربوى بهذه الفلسفة(٤) ٠ ويرجح أن نظام التربية الاسبرطية يرجـــع الى المشرع ليكرجس فى حـــوالى منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ٠ وكان هـــدفها اعداد الفرد لمكانه فى

---

(١) لشرح أوفى فى التربية ، اليونانية ، والرومانية ـ انظر كتاب « التربية عند اليونان والرومان » للأستاذة فتحية حسن سليمان ٠

(٢) Mulhern, op cit., p. 135.

(٣) McCormick, op cit., p. 89.

(٤) منرو ، بول (ترجمة صالح عبد العزيز) : المرجع فى تاريخ التربية ، جزء أول ، ص ٢٢ ـ ٧٣ ٠

الدولة . فالولد يعد ليكون ذا كمال جسمى شجاعا متحليا بعادات الطاعة العمياء للقانون . وحتى يكون الجندى الذى لا يهزم ، متقشفا وضابطا لشهواته مخاطرا ومتحديا المشقات ، أما المرأة الاسبرطية فكانت تربى لتتصف بالترفع والنشاط فى الحياة .

وكانت الدولة تمتلك الطفل منذ لحظة مولده ، وهى التى تحدد ما اذا كان هذا الطفل يستحق الحياة أو الموت . ويحدد هذا القدر مجلس من المسنين ، فاذا آنسوا فى الطفل ضعفا أو هزالا تركوه فى العراء ثم يعودون اليه بعد فترة ، فاذا كان قد تحمل الجوع والجو سمحوا له بالحياة ، والا فخير لهم أن يموت فلا ينمو مواطنا ضعيفا .

ويسمح للطفل بالبقاء تحت رعاية الأم فى البيت لمدة سبع سنوات ، ثم يرسل كل الأطفال الى مؤسسات تديرها الدولة حيث يتولى أمرهم مرب Paedonomos يعاونه بعض المساعدين . ويصبح الطفل عضوا فى أسرة أكبر هى الدولة . حيث يعيش مع غيره من الاطفال فى ظل نظام قاس . ويأكل الأطفال معا ويلبسون ملابس متشابهة ، وينامون فى معسكرات يغلب عليها طابع التقشف ... وكل شىء مشاع بينهم ، فكل شىء ملك الدولة ، ولم يسمح لهم الا بارتداء القليل مما يستر الجسم ، وبالتغذى بالضرورى . ويقسم الأطفال الى مجموعات ، تتكون كل مجموعة من أربعة وستين طفلا ، وعلى رأسهم Eiren ولد اختير لشجاعته وحسن تصرفه .

وكانت حياة الاسبرطى تدريبا مستمرا للحرب ، فكان الواحد منهم ينام فى المعسكرات حتى يبلغ سن الثلاثين ، ويأكل فى الميس العام حتى يبلغ سن الستين ، وكان لا يسمح للفرد الا بقدر قليل من المال والحاجات العينية ، مما يحتاجه لبعض الضروريات . واذا كانت الدولة قد منحت كل اسبرطى حر قطعه من الأرض يزرعها ويفلحها له العبيد ، فانها تطلبت منه أن يدفع لها مبلغا فى الشهر ، واذا فشل فرد فى تقديم ما يطلب منه طرد من الميس وحرم من المواطنة .

ولم تسنح للطفل الاسبرطى فرص للتدريب العقلى ، فقد غطت التربية العسكرية الجوانب الأدبية فى مناهج التعليم ، بل لم يتعلم القراءة ولا الكتابة فى مدارس الدولة الا على أيدى مدرسين خصوصيين ، أما أشعار هومر والأغانى الوطنية فقد اهتم المسئولون بها على أساس أنها تدعو الى الحماس وتوقظ الهمم أكثر من كونها مادة للتقدير الأدبى والفنى .

على أن الجانب الأكبر من التربية الاسبرطيـــة كان مكرسا للتدريبـات العسكرية والتربية الرياضية ، فكان الأولاد يمتطون ظهور الجياد ويمارسون السباحة يوميا ويقضون وقتا طويلا فى التمرينات التى تقوى العضـــلات وتبنى أجساما مرنة وقوية · وكان الخمسة الكبار Ephors يزورون معاهد التعليم بصورة دورية للتفتيش على الدراسة والتدريب · ويجلس الواحـــد منهم يراقب عن كثب كيف يؤدب المعلم تلاميذه وكيف يجادلهم ويعاقبهم حتى اذا فرغ الدرس ولم يرض الزائر عن تهاون المعلم فى عقابه تولى هو معاقبـة المؤدب أو المعلم ·

والقسوة والعنف كانا شـــعار التربية ، فالصـبية يجرون ويقفزون ويتلاكمون ويتصارعون ، ثم قليل من الرقص والموسيقى · ثم سباحة وتحمل مشاق وتخطى عقبات ، ففى بعض المناسبات كان الأولاد والشـبان يضربون ضربا مبرحا أمام مذابح الالهة ارتيميس · ويسمح فى المصارعة والملاكمة بأى أسلوب يمكن للفرد من التغلب على خصمه كقطع جزء من جسمه أو احداث عاهة ·

ومع هذه الشدة كانت هناك تربية خلقية تلازم هذه التمرينات ، ولعل أهمها تقديس وطاعة الرؤساء ، أما الأمانة والصـــدق فلهمـــا معـــايير قد لا نرتضيها اليوم · والتواضـــع مطلوب ، فالصبية يمشـون فى الطرقات وأيديهم تمسك بأطراف العباءة وعيونهم مطرقة الى الأرض ، ولكن لا بأس من الكذب على غير الاسبرطين ولا بأس من السرقة ، وعلى السارق ألا يضبط والا أصابه الجلد والامتهان بتهمـــة الاهمال وعـــدم الحرص والفشل ، فالسرقة والتلصص تدريبان على أعمال الحرب · وكل تدريب يؤدى الى نصر فى الحرب فمرحبا به عند الاسبرطيين · وشرب الخمر الى الثمالة مرذول ·

وخضع الاسبرطى للعقوبات البدنية حتى يدخل البـاب ملتحقا بفرقة الافيبى Ephebi أى الطالب الحربى بعد سن الثـــامنة عشرة ، حيث كان يتلقى تدريبات عسكرية متقدمة ، كما كان يعمل معلما للأطفال ومشرفا عليهم حتى اذا ما كبر وأصبح بفرقة الافيبى كان مؤهلا لتلقى أعنف التدريبـــات العسكرية ، ثم ينتقل الى دراسة أكبر بعد اجتياز عدة امتحانات عســـيرة شاقة · ويبقى فى فرقة المليرينس Milleréns عشر سنوات ، يصبح بعدها فى سن الثلاثين ، أى رجـــلا مكتمل الرجولة مواطنا ومحاربا ، وعليه أن يتزوج حينئذ ·

أما البنات فقد عهدت تربيتهن الى الأمهات ، وكن يخرجن حافيات لا يستر أجسادهن الا ثوب واحد ، وخضعن أيضا لتدريبات رياضية وتدربن على المصارعة والسباحة والجرى ورمى القرص والرمح · وكن يقسمن الى جماعات ، كما هو الحال بالنسبة للبنين ·

ان نظرة عامة على التربية الاسبرطية تبين أنها استغلت الأفراد لخدمة الدولة كل الاستغلال ، فالفرد للدولة من ساعة مولده · وهو يعد ليكون حاميا ومدافعا عنها ، والبنت تعد جسميا وخلقيا لتكون زوجة تقدم للدولة محاربين أصحاء أشداء بل ان الرجل المسن كان يعير زوجته لغيره من الرجال حتى تنجب للدولة أطفالا أقوياء · وقد هيمنت الدولة تماما على التربية وحققت ما أرادته من أهداف خلق المواطنين القادرين على حمايتها وتحقيق مطامعها · أفراد أشداء لهم معاييرهم الخلقية التى تناسبت عصرهم ، متحمسون لوطنهم ومتعصبون له ·· ولكن عندما حلت باسبرطة الهزيمة تداعى هذا البنيان وطغت موجات من الانحلال الخلقى والفوضى بعد فترة طويلة من النظام والجمود ·

لقد ضحت الدولة فى اسبرطة بالفرد وفكرت الدولة للفرد ، وعندما حلت الساعة التى تحتم فيها على الفرد أن يفكر لنفسه ، يجد نفسه عاجزا ·

وفى محاولة لتقييم التربية الاسبرطية نجد أن الخضوع للقوانين خضوعا أعمى ساد حياة الاسبرطيين ، ودمغ هذه الحياة بجمود شديد ·

وكان من نتيجة هذه التربية العسكرية التسلطية فى اسبرطة أن طبعت الأفراد بخصال كانت سببا فى فشلهم فيما بعد ، فقد عرف عن الاسبرطيين أنهم لم يتعودوا الاعتماد على النفس أو توجيهها ، كما أن قدرتهم فى التفكير أو التخيل كانت محدودة لأنهم لم يتعودوا مواجهة المشكلات ومحاولة حلها بتعقل وروية ، فلم يعط الاسبرطيون الفرصة لتحمل المسئوليات ، بل ان الدولة وجهتهم فى كل شىء ورسمت لهم طريق الحياة ولم يكن عليهم الا الانصياع للأوامر والبعد عن النواهى(١) وقد أدت هذه التربية الى جدب وقحط فى التراث الفكرى وانهيار لحرية الرأى وعدم قدرة للاسبرطيين على تكييف أنفسهم تبعا لتغير الظروف ·

---

(١) فتحية سليمان ، المرجع الاسبق ، ص ٢٥ ·

أثينـــا :

ولعل أهم ما كانت تهدف اليـــه التربية الآثينية بمقارنتها لشقيقتها المحاربة أسبرطة أن يسير الفرد فى حياته بالحكمة التى يغلفها العقل فى أدائه ما يلقى عليه من واجبات · على أن الدولة الآثينية تطلبت من مواطنيها قوة الجسم والجرأة والاقدام فى ساحة الوغى وما أكثر ساحاتها · ولكن أثينا لم تتبع ذلك الأسلوب العسكرى الاستبدادى الذى اتبعته اسبرطة ، فقد قدست آثينا الأسرة على أساس أنهـــا ركيزة فى نمو شخصية الطفل وتشكيلها ، وتطلبت من الأسرة العناية بالطفل ، حتى ان مشرع آثينا الأعظم (سولون) أعفى الابن من مساعدة أبيه اذا قصر هذا فى تربيته عندما كان طفلا · وقد اهتمت آثينا ، عـــلى عكس أسبرطة ، بتعليم الموسيقى الى جانب التربيـــة البدنية ، على أن المدارس كانت خاصة يملكها افراد ، ولكنها تحت اشراف الدولة التى أشرفت أيضا على تربية الأطفال فى منازلهم ·

وتكون المجتمع الآثينى من المواطنين والأجانب والعبيد · وقدر عـــدد السكان فى القرن الرابع قبل الميلاد بواحد وعشرين ألف مواطن ، وعشرة آلاف أجنبى · أما عدد العبيد فوصل الى ٤٠٠ر٠٠٠ عبد ، أى حوالى عشرين عبدا لكل مواطن حر(١) ولم تكن للعبيد حقوق مدنية ، ولكن كانت هنـــاك تشريعات لحمايتهم من عبث الأحرار واضطهادهم · أما الأجانب فلم يكن لهم الحق فى الاشتراك فى حكومة الدولة ولا تملك أرض ، وللأجنبى أن يعمـــل بالتجارة على أن يدفع ضريبة ســـنوية ، وقد يخدم أحيـــانا فى الجيش أو البحرية · وعمل العبيد فى أعمال يدوية ، مما أضفى على هذه الأعمال مهانة كانت تثير تقزز الســـادة الأحرار الذين اســـتمتعوا بوقت فراغ أتاح لهم الاهتمام بواجباتهم كمواطنين ، ومنها حضورهم ساحات المحاكم والجمعيات العمومية والخوض فى سير النـــاس ممن يهمهم التحدث عنهم ، ونقـــدهم والتشهير بهم اذا لزم الأمر ·

وذهب الأطفال الى مدارس أدارها أفراد منذ الصباح الباكر ويستمرون بها حتى تغيب الشمس ، وقد بدأ الاشراف الحـــكومى عـــلى المدارس منذ تشريعات سولون عا م٥٩٤ ق٠م · فقد أصر سولون عـــلى ضرورة تعلم كل طفل مهنة ، كما حدد ساعات الدرس ، وكذا الشروط الواجب توافرها فيمن

---

(١) Mc Cormick, op. cit., p. 95.

يقوم بمهنة التربيـــة ومسنه · وكم من التـــلاميذ يستوعبهم اشراف المربى الواحد · وكان سولون هو الذى أدخل دراسة (هومر) فى المدارس ·

هدفت التربية الآثينية الى تكوين تناسق بين روح مرهفة تحس بالجمال وتقدر الأدب ، وجسم رشيق قوى ، هدفت الى تكوين الرجل الكامل جسما وعقلا وخلقا ·· الجندى الذى يذود عن الوطن ، والمواطن القادر على الاسهام فى ثقافة بلده بتتبع كل جميل فى وقت السلم · وكانت تربية لاستخدام وقت الفراغ فى نمو متزن للفرد ، واســـتخدام مثمر لامكانياته الجســمية والعقلية والروحية · وعلى الوالدين فى بواكير الطفولة مسئولية كبيرة فى هذه التربية فيسمعان الطفل قصصا وأساطير ويدللانه ، حتى اذا كبر بدأ الطفل يعرف الشدة ، والضرب بالنعال والعصى ··· ولكن لا يفتقد العطف والحب منهما ·

ويذهب الطفل الى المدرسة حوالى السابعة من عمره · ويقسم اليـــوم المدرسى بين البانيسترا Palaestra أو حلقة المصـــــارعة والديدسكاليون Didaskaleion أو مدرسة الموسيقى ، وفى الباليسترا يدرب التلاميذ على كل التمرينات الرياضية كرمى القرص والرمح والمصـــارعة والجرى والرقص والسباحة وتدليك الجسم بالزيوت ليحتفظ برشاقته ، أما مدرسة الموسيقى فقد عنى بها أيام الاغريق فى دراسة الأدب والتربية الخلقية ، وفى المدرســة يتعلم التلاميذ القراءة والكتابة والحساب الى جانب الأغانى الوطنية والشعر ·

وكان يرافق التلميذ فى ذهابه الى المدرســـة عبـــد مسن اضطرته شيخوخته الى عجز عن أعمال تحتاج الى مجهود فعهدوا به الى التلميذ يصحبه فى غدوه ورواحه من المدرســـة · وكان هـــذا البيداجوج Paedagogue يقوم بتقويم أخلاق التلميـــذ ويراقب سلوكه وعاداته فى الحـــديث والمشى والمجلس والمأكل ومعاملة الناس ·

أما المربون فى المدرسة فكانوا يأخذون معاشهم مما يدفعه التلاميذ ، وقد يستطيع مرب بما يجمعه أن يجمع التلاميذ فى فصل دراسى ، أما غيره فكان يعقد حصصه فى الهـــواء الطلق ··· فى ظل معبد أو فى أحضـــان تعريشة وارفة الظلال ··· أو فى مكان هادىء عـــلى قارعة طريق لا يطرقه كثير من المارة ·

وقد اتبع الاغريق فى تدريس القراءة ، الطريقـــة التركيبية ، فيتعلم

التلاميذ حروف الهجاء أولا ثم يكونون منها مقـــاطع ثم كلمات · ثم يبـدأ التلاميذ الكتابة على الرمل ، ثم على الشمع ثم على جلد رقيق مستخدمين قلما من الغاب وحبرا مصنوعا من الصمغ والصـــناج ، كما كان يفعـــل قدماء المصريين ، ولكن هؤلاء استخدموا ورق البردى كما استخدموا لوحة العدد فى تعلمهم مبادىء الحساب ، وكانت الحروف هى المستخدمة بدلا من الأعداد ، كما استخدمت الأصابع فى عمليات العد داخل المدرسة وخـــارجها حيث يوضع أصبعان متجـــاوران للدلالة على رقم معين · ودرس التلاميذ بعض المعلومات الجغرافية من دراستهم لالياذة هومر . أما الشعر فكان يستظهر ويسمع بمصاحبة الموسيقى ·

وحوالى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة كان الشـــاب الآثينى ينتقل من الباليسترا الى الجمنازيوم العام بعـــد أن يتم المدرسة الابتدائية وكانت ثمانى أو تسع سنوات · وكان أبناء غير ميسورى الحال يتوقفون عند التعليم الابتدائى ثم يتجهون الى بعض الصـــناعات للتكسب · وقد عرفت ساحتان عامتان هما الأكاديمية والليسيه Leceum وخلدتا لارتباطهما بكل من أفلاطون وأرســـطو على الترتيب وفى هذه الســـاحات اتخذت التمرينات الرياضية طابعا قاسيا اذا قورنت بالباليسترا · وكانت الدولة تملك هذه الساحات ، ويعمل فيها موظفون رسميون ومهمتهم اعداد الشباب لمتطلبات الدولة ·

وفى حوالى سن الثامنة عشرة ولمدة سنتين ، يقسم الآثينى يمين الولاء لدولته ، ويتمرن على فنون الحرب ومعيشة الجنـــدية ، وغالبا ما تكون فى حراسة الحدود ، ويتدرب على استخدام الأسلحة (الثقيلة) كالدرع والقـــاء الرماح ، وفنون التكتيك العنيفة ، وكان يطلق عليه فى هذه الفترة اســـم Ephepe أى الشباب ، وبعد انتهاء السنتين يتقدم الى « الجمعية العامة » ويتقبل من الدولة رمحا ودرعا ويصبح مواطنا . ثم يقسم أمام المواطنين كبار السن أن يكون مخلصا للقوانين وللعرف ، وألا يهجر دولته وأن يظل عـــلى الدوام مستعدا للذود عن حياض وطنه ، وأن يعمل على تنميته بتثقيف نفسه وبالنجاح فى أعماله الخاصة ، وقد كانت أمام الآثينى الحر الفرص لاستمرار ثقافته فى النحت والتصوير والفن المعمارى والدراما ·

وجلس الآثينيون فى ظلال الأشجار يتجادلون ويتناقشون فى كل ما يهم دولتهم وطرقوا أبواب الأدب والفن والحكومة والسياسة والفلسفة ، وكانت هذه الجلسات الظليلة ، والمناقشات الممتعة فاتحة التفكير الذى نما وتطور ،

ومن خلاله عرفنا وعرف العالم أجمع مفكرين عظاما مثل السوفسطائيين وسقراط وأفلاطون تركوا للفكر التربوى أشهر الثمرات مما سنوضحه فيما يلى ٠

السوفسطائيون وسقراط :

اهتم الاغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد بمشاكلهم التربوية ، فقد بدأ بعض المفكرين يفحصون طرائق الحياة والنظم الاجتماعية التى عاشها الاغريق قرونا طويلة ، ولاح لهم أن ثمة تغيرات قمينة بالحدوث ، خاصة بعد الحروب التى خاضوها والانتعاش الاقتصادى الذى فاض عليهم ، وكان لابد اذن من تعديلات اجتماعية ، فالنظام الموجود وقتئذ أصبح لا يناسب ما طرأ على المجتمع من تغيرات وتطلعوا الى التربية ، ونظامها ، كيف يتعلم الاحداث ؟ وماذا يتعلمون ؟ ان العادات والتقاليد القديمة أصبحت غير مناسبة ، كما أن الاتجاهات الجديدة لا ترضى جميع المواطنين ، كان هذا هو الموقف الذى مهد الطريق للفلسفة لتقول رأيها ٠

وكان السفسطائيون هم أول من تصدوا لمشكلات النظرية التربوية التى تمخضت عن القلق الاجتماعى ، وكانوا من أشد المهاجمين للنظم التى ارتمت فى أحضان التقاليد ، وكان سلاحهم التفكير فى اطار من احتياجات الأفراد الذين ذهبوا اليهم طالبين العلم والمعرفة ٠ وقالوا : ان الانسان هو مقياس الأشياء ٠ ثاروا على التقاليد القديمة التى كانت هى مقياس الأشياء ، ودفع لهم طلاب العلم ثمن ما يتعلمونه ، غير أن ما يؤخذ على السفسطائيين أنهم كانوا يدافعون عن وجهة نظر تتناسب مع من يدفع لهم ، فقد يؤيدون رأيا فى وقت ، ويؤيدون نقيضه فى وقت آخر ٠

وقد جذبت طريقة السفسطائيين الشباب المتحمس ، وأغضبت المحافظين وكبار السن ، وقد احتقرهم البعض لأنهم اتخذوا من العلم سلعة يبيعونها ، وخافهم الكثيرون لما فى آرائهم من ثورة على القديم والمتعارف عليه ، ومع ذلك فقد هرع اليهم الشباب لما اتسمت به آراؤهم من حرية وانطلاق ، ولما أضفوه على الفرد من تمجيد واعزاز ، فقد عملوا على تحرير العقل من الجهالة والروح من الخوف والجسم من الوهن ، لقد عملوا على نمو الانسان ككل ، ونسب اليهم المناصرون أنهم كانوا دعاة الحرية للبشرية(١) ٠

---

(١) Mulhern, Op., cit., pp. 148-149.

وكان السفسطائيون يعلمون الحساب والهندسة والفلك والتاريخ الطبيعي والنحو والبيان والتاريخ والأساطير والمنطق والسياسة والأخلاق وفقه الدين والرسم والموسيقى والتكتيك الحربى ، ولكنهم ركزوا على البيان ، أما بقية المواد وغيرها فكانت تهدف الى مد المتكلم بحصيلة من المعلومات تفيده فى مناقشاته ، ولم يعلم السفسطائيون المنطق حرصا على معرفة الصدق والحق ، ولكن للفوز فى مناظرة أو مناقشة كلامية ، وهذا ما سمى بالسفسطة ، وكانوا ينكرون وجود الموجود أو الحقيقة الموضوعية ، ويؤكدون أن الظواهر هى الأشياء الوحيدة الموجودة ، وأن رأى الفرد هو الصدق الوحيد .

وظهر الصراع بين المحافظين وآرائهم وبين السفسطائيين وآرائهم . صراع بين ارستقراطية وديمقراطية ، وقد أولى سقراط (٤٦٩ - ٣٩٩)(١) هذا الصراع اهتمامه الكبير ، وهو أعظم مفكرى آثينا فى القرن الخامس ، وقد نشأ سقراط نشأة متواضعة ، فكان متجها بحكم نشأته ناحية الديمقراطية ، وقد رأى سقراط الحاجة الى تربية من نوع ممتاز . تربية انسانية متجهة الى الانسان ويكون موضوعها الرئيسى الجوهر الروحى للانسان ، ولكنه لم يقصد من هذا ما قصده السفسطائيون بقولهم ان الانسان مقياس كل شىء ، ولكنه قصد الى القول بوجوب أن تكون المعرفة مستقلة ، أى أن عقل الانسان يجب أن يبحث فى الأشياء باستقلال وحرية كاملة ، وان يحكم فى كل ما هو موروث . فلا قيمة للأفكار أو العقائد من حيث هى قديمة أو حديثة ، ولكن تتأتى قيمتها من حيث أنها تعبر تعبيرا صحيحا عن حقيقة الأشياء(٢) .

أما عن منهج سقراط الفلسفى فكان يبدأ بادراك الانسان لنفسه ، أى يبدأ البحث بادراك الانسان لذاته لكى يعلم الفرد هل لديه علم صحيح أو أن ما عنده ان هو الا علم مشوه ، أو أنه جاهل تماما ، وكان سقراط يعمل على أن يثبت لمتحدثيه أنهم جهلة ، ومن الجهل تتكون النقطة الأولى للبحث الفلسفى . ومن الركائز التى تركز عليها قوة سقراط أنه فى محاولته للبحث عن الحقيقة ، حاور غيره ممن ادعوا العلم ، وباستخدام طريقته اكتشف أنهم لا يعلمون ، ولكنهم يدعون العلم ، أما هو فيعلم أنه جاهل ، وهو يعلم بأنه لا يعلم ، وهذا علم صحيح .

---

(١) تحديد سنة مولد سقراط فيها أقوال كثيرة ، وان كان يغلب أنه ولد عام ٤٦٩ ق.م.

(٢) عبد الرحمن بدوى : أفلاطون ، ص ٢٨ .

ويبدأ سقراط خطوة ثانية وهى التوليد — وكان سقراط يقول فى هذا المعنى انه يحترف صناعة أمه ، وكانت قابلة ، الا أنه يولد نفوس الرجال — فيسأل من يحاوره عما يعرف فى مسألة من المسائل ، ويرد المحاور فى ثقة واعتداد · ثم يبدأ سقراط أسئلة كان قد أعدها بحيث يختلط الأمر على محاوره فيناقض نفسه ، وكان سقراط يستعمل دائما طريقة توكيد البرهان عن طريق نفى العكس ، فسقراط حين كان يبحث فى تعريف مسألة من المسائل ، يأتى بكل الأشياء التى تضاد هذا التعريف ، فى الظاهر على الأقل ·· فمثلا اذا سأل أوتيديموس ما الظلم ؟ يجيب أوتيديموس بأن الظلم هو أن يكذب الانسان وأن يخدع وأن ينهب ·· الخ فيقول له : ولكن هل يعد ظلما أن يكذب الانسان على عدوه أو يخونه ، أو ينهبه ؟ حينئذ لابد من تصحيح التعريف الأول ، وهذا التصحيح يتم بأن يقول أوتيديموس ، ان الظلم أن يفعل الانسان هذه الأشياء ضد أصدقائه ، وهنالك يجيب سقراط بأن ذلك لا يتم فى كل الأحوال : فهلا يعد الكذب فضيلة حينما يكون باعثا على الشجاعة أو حاثا على طلب العلم ، أو مانعا صديقا من أن يستخدم سلاحا لانتحاره ؟ حينئذ يجيب أوتيديموس بأن الظلم اذن أن يرتكب الانسان هذه الأشياء ضد أصدقائه أيضا حينما يريد الاضرار بهم ، وهكذا يستمر الحوار(١) ·

وكان سقراط يحاول دائما الاستفادة من الآخرين ، وأن يساعد الانسان للوصول الى تعريف الشىء تعريفا صحيحا ، وكان سقراط يتعلم بينما هو يعلم عن طريق الحوار ·

وكان سقراط يستعين بالاستقراء ويتدرج من الجزئيات الى المعانى أو الأحكام العامة · كما أن سقراط آمن بأن الادراك الحسى هو أساس المعلومات جميعا ، ولأن هذا الادراك يختلف باختلاف الأفراد ، فان المعلومات التى تجىء عن طريقه مختلفة ، فنحن لا نعرف عن الحقيقة الا الصور المختلفة التى تقدمها لنا الحواس ، ولذلك اتجه سقراط الى بناء تحصيل المعرفة على العقل لا على الحواس معارضا بذلك آراء السفسطائيين ·

ويرى سقراط أن العقل عام مشترك عند جميع الناس وما دام للعقل أداة المعرفة ، فالحقائق الخارجية ثابتة لأن الناس جميعا يرونها بمنظار واحد ، هو العقل الذى يختلف ادراكه فى شخص عن آخر ·

---

(١) عبد الرحمن بدوى : المرجع السابق ، ص ٣٧ — ٣٨ ·

وكان رأى سقراط هذا هو الأساس الذى نشأت عليـــه كل المذاهب العقلية المثالية Idealism (١) ٠

ويذكر أن سقراط انصرف عن البحث فيما يتصل بالطبيعة والآلهـــة مؤثرا أن يدرس الانسان نفسه أولا ، ثم يدرس الشيء المتصل بالانسان ، وكان يرى أن عقل الانسان لا يستطيع أن يصل الى البحث فى الطبيعة والالهيات ٠

ورأى سقراط أن الانسان لا يمكنه أن يعمل الخير الا اذا عرف ماهيـة الخير ، أى عرف الادراك العقلى للخير ، فالعمل الأخلاقى مؤسس على المعرفة ، ويجب أن يصدر عنها ٠٠٠ بل ان الفضيلة والعلم شيء واحد فيستحيل أن تعرف الخير معرفة صحيحة ولا تعمله ، كمـــا يستحيل أن تعمل الخـير ولا تعرفه ، فيكفى فى نظر سقراط أن يعلم الانســـان ما الفضيلة حتى يكون بمنجاة من فعل الرذيلة ، وكل عمل شر انما يصدر عن الجهل بالفضيلة ، لأن الانسان لا يسعفه اذا عرف الخير أن يفعل شرا(٢) ٠

وانتهت حياة سقراط بمحاكمته ، فقد اتهم بانكاره آلهـــة اليونان ، وكذا بدعوته لآلهة جديدة ، كما اتهم بافساد الشباب الذى سحرته آراؤه فالتفوا حوله وزاد أعداء سقراط لانه هاجم الديمقراطية منكرا انتخاب الزراع والصناع لمناصب الدولة ، كما أغضب الارستقراطيين لما يبدونه من استبداد وظلم ووقف سقراط أمام قضاته ودافع عن نفسه مشفقا على القضاة أنفسهم من موقفهم المخزى ومتألما لما صارت اليه الأمور من فساد ، وحكم عليه بالموت وسجن ثلاثين يوما ومات بأن أمر بتناول كأس من السم ٠

افلاطـــون(٣)

نظرية أفلاطون فى التربية :

تستند نظرية أفلاطون التربوية على أصـــول مستمدة من علم النفس والفلسفة والاجتماع يمكن اجمالها فيما يأتى :

---

(١) أحمد أمين ، وكى نجيب محمود : قصة الفلسفة اليونانية . ص ٢١ - ١٢١ ٠
(٢) المرجع السابق . ص ١٢٧ ٠
(٣) ولد بين سنتى ٤٢٩ - ٤٢٧ ق٠م ٠

الفرد :

استنتج أفلاطون من ملاحظـــاته أن النفس تتكون من ثلاثة أنواع من القوى أو القدرات أو الملكات ، قوة العقـــل « التفكير » وموضعها الدماغ ، والغضب وموضعها الصدر ، والشهوة ، وموضعها البطن · والعقل هو هذا القسم من النفس الذى يمدنا بالقدرة على اكتشاف الحق والباطل ، وعـــلى اثبات أى الأقوال حق وأيها باطل ، والتفكير هو الدافع والمؤدى لكل معرفة ·

والقوة الغضبية عند أفلاطون هى الارادة كما نطلق عليهـــا اليوم أما هذا الجزء من النفس وهو الشهوة فهو مرتبط بالوظائف الجسمية ·

وأهم أنواع المعرفة التى يؤدى اليها نشاط العقل هو الحكمة ، هـــو معرفة طبيعة الخير والطرائق السليمة للحياة الصالحة للمجتمع والفرد · ولكن لا يستطيع العقل وحده التحكم فى الفعل البشرى · فقد نعرف ما يجب عمله ومع ذلك لا نسلكه ·

ويأتى التوجيه بطريق غير مباشر من العقل والتفكير · ويأتى مباشرة من القلب مركز القوة الغضبية ، فالحكمة التى يكتشفها العقل تعمل على تحقيق الشهوات الضرورية وغير الضرورية ، والارادة هى القوة التى تنفذ ما تقوله الحكمة ، ومع أن كل نفس بشرية فيها القوى الثلاث ، الا أن الأفراد يختلفون ، فبعض الأفراد قادرون على التفكير أحسن من غـــيرهم ، ولذا فلديهم المعرفة والحكمة ، وقدرة البعض على التفكير أقل ، ولكن قدرتهم على العمل أكثر ، وهؤلاء يستطيعون بالقوة الغضبية « الارادة » أن يسيطروا على الشهوات · والنوع الثالث من الناس تفكيرهم قليل وقلوبهم ضعيفة ، وتظهر شهواتهم مسيطرة · ولا يستطيعون كبح جماحها الا بقوة من الخـــارج ، قوة أساسها الحكمة التى يفتقدها هؤلاء ، أو قوة أساسها السلطة المادية الرادعة ·

وباختلاف الأفراد فى القوى ، يختلفون أيضا فى المهن التى يصلحون لها · فحيث يكون للعقل الغلبة فصاحبه يصلح للمهن التى تتطلب الدرس والتحصـــيل والتفكير ، وحيث تغلب الارادة ، فالمهن التى تصلح لهـــا هى ما تتطلب أعمالا بالقوة كالحرب والشرطة · أما حيث تسود الشهوات فخـير ما يصلح لها هو التجـــارة والانتـــاج حيث الربح وحيث تتحقق اللذات الشخصية ·

وتوزع قوى النفس بين الرجال والنساء ، ولا يؤثر الجنس فى فاعلية

هذه الحرى ، ومعنى ذلك - فى رأى أفلاطون - أن المرأة تستطيع شغل مناصب الحكم والمسائل الاقتصادية والحربية ، واقفة على قدم المساواة مع الرجل ، ويؤكد أفلاطون ضرورة اتاحة الفرصة لكل فرد ليعمل حسب امكاناته وقدراته حتى يتمكن من حسن استغلالها ، وعلى المجتمع أن يهيىء لكل فرد الفرص لاستغلال امكاناته(١) ٠

المجتمع :

رأى أفلاطون أن وظيفة المجتمع اقتصادية وحربية وتشريعية لسلامة الحكم ، ووجد مثالا لهذا المجتمع فى مدينة الدولة الاغريقية ، وكانت مدينة الدولة - ويسميها البعض المدينة الحرة - محدودة المساحة ، وتشمل مدينة تحوطها بعض القرى الصغيرة ، وهى تمون نفسها اقتصاديا بقدر المستطاع ، وتتاجر خارجيا مع مدن أخرى ، ويظهر أن أفلاطون لم يفكر فى دول كما نعهد اليوم من حيث المساحة وعدد السكان وتشابك العلاقات الخارجية ٠

ولكى تنجح وظائف المجتمع يجب أن يستشعر كل فرد السعادة فى عمله ، ولن يتأتى هذا الا باتقانه هذا العمل ، فالصناع مثلا عليهم أن يجيدوا صناعاتهم وحرفهم حتى يقبل الناس على شرائها وبذلك يقتنون المال الذى يرضى شهواتهم ، وكذلك الأمر بالنسبة للشرطة والجيش ، فعلى كل عامل بهما أن يعتز بعمله ويسعد ويقبل عليه حتى يتحقق للدولة النصر الخارجى والأمن والنظام فى الداخل ، والا دبت الفوضى أو خضعت المدينة لسيطرة مدينة دولة أخرى وبذلك يتحطم مجتمعها ، وعلى الجيش والشرطة العمل حسب قوانين الحكومة التى يتولاها الحكام ، وعلى هؤلاء أن يتمتعوا بالعقل والحكمة حتى تكون أوامرهم رشيدة متزنة ، ومحققة لخير المجتمع ٠

وبهذا يوجد فى المجتمع ، العمال والصناع والمزارعون والتجار مكونين طبقة اجتماعية تعمل على خدمة الاحتياجات الاقتصادية للمجتمع ، ثم طبقة الجند والشرطة وعليها حماية المدينة من الداخل والخارج ، ثم طبقة الحكام الذين يهيمنون على المدينة عاملين على خيرها وموجهين الطبقتين الأخريين ٠

---

(١) Price, Kingsley : Education and Philosophical Thought, pp. 20 - 23.

الميتافيزيقا :

في مواطن كثيرة بكتاب الجمهورية لأفلاطون قال : ان العـــالم الملاحظ متكون من عديد من الأشياء وكل شيء له خاصيته ومكانه ويمتد منتشرا في زمان معين ، وكل شيء في تغير مستمر في صـــفاته وعلاقاته أو يتحرك من مكان لآخر ، وكل شيء ينتمي الى طبقة طبيعية · فالشجرة التي نراها واحدة من هذه الأشياء فنحن ندركها بحواسنا ، وهي متميزة عمـــا حولها · وهي متغيرة (سقوط الاوراق ، النمو ، الثمار ·· الخ) ، وهي تنتمي الى مجموعة من النباتات · على أن كل شجرة يمكن أن تميز عن غيرها من نفس المجموعة ، ومع ذلك فيقول أفلاطون : ان كل الشجر يشترك (داخل مجموعة واحدة من الشجر) في صفات عامة · فاذا اختلفت نخلة عن بقية النخيل فان لكل النخيل صفات مشتركة أو جوهرا واحدا يمكن أن نطلق عليه اسم (المثال)، وكما أن هناك) مثالا (للنخيل فهناك) مثال لكل مجموعة من الأشياء ·

وللمثال صفة العالمية والعمومية ، وتظهر في مظاهر مختلفة وفي أمكنة متعددة وأزمان متباينة · و (المثال) خالد وليس متغير · فهناك أنواع كثيرة من النخيل في مناطق مختلفه ، ولكن المثـــال واحد · و (المثال) يتصف بالكمال والمثالية ، وقد نجد شجرة نخيل فيها عيب وأخرى قصيرة وثالثة مفرطة في طولها ورابعة ثمارها شهية ··· الخ ولكن في ذهن عالم النبـات صورة لشجرة النخيل كما يجب أن تكون ، وعلى أساس هذه الصورة يصف نخلة بأنها سليمة وأخرى بأن عيبا فيها ·

و (المثل) يرتبط بعضها بالبعض الآخر في نظام ، وعندما يبلغ العلم ذروته سوف تنتظم كل الأشياء في نظام كامل ، وعلى قدر معرفة الانسـان فقد انتظمت (مثل) الأرقام في علم اسمه الحســاب ، وانتظمت (مثل) الحركة السماوية في علم الفلك ، و (مثل) النغم في الموسيقى ·

وتقول نظرية أفلاطون الميتافيزيقية ان خلف كل شيء مدرك في العالم نظاما من المثل يفسر ما في هذا العالم ، وما ندركه بحواسنا في هذا العـــالم صور لتلك (المثل) ، واننا في هذا العالم نرى نسخا باهتة من هذه المثل · والمثل كائنة وموجودة حتى ولو فنى هذا العالم ·

ويظهر لنا تطبيق نظرية أفلاطون هذه في مفهومه عن الانســان الذي يجب أن يتحلى بقـــوة الفكر والارادة والشـــهوة · وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمع الذي يتضمن الوظائف الاقتصادية والعسكرية والتشريعية ، ولهـذا

فان العـــلاقة بين المواطنين والدولة يجب ان تكون شـــبيهة بالعلاقات بين (مثال) الانسان و (مثال) المجتمع ٠

الأخلاق :

وتظهر فلسفة أفلاطون فى الأخلاق منعكسة على التربية فى نظريتـــه العامة عن طبيعة الخير . وهذه النظرية تعتمد على فكرته الميتافيزيقية ، فقد رأينا أنه يتحدث عن نظرية المثل وأن الموجودات المدركة صور أرضية من هذه المثل التى تتصف بالكمال والخلود ، ولذلك فانه يقول : ان الخير فى كل شىء مدرك يتوقف على الدرجة التى يقترب فيها هذا الشىء من صورته المثالية أو يعبر عنها ، ولنأخذ مثلا النخلة ، فالخير فيها والجمال ليس سببه ما تضفيه علينا من ارتياح أو لذة ولا على أساس مقارنة النخلة بشجرة الجميز مثلا ، ولكن الخير والجمال فى النخلة هو مدى اقترابها من صورتها المثالية ٠

وفى رأى أفلاطون أن المجتمع الخير هو المجتمع العادل ٠ وبقدر اقتراب المجتمع بوظائفه الثلاث والانسان بقواه الثلاث من المثالية الموجودة فى عالم المثل ، يمكن ان يتحقق العدل بدرجة تتناسب مع درجة الاقتراب المثالية ، ولهذا فقد وجه أفلاطون نظامه التعليمى ليحقق بقدر المستطاع هذا العـــدل والحق ٠

المعرفة :

قال أفلاطون ، ان المعرفة حالة عقلية تتميز بالتأكد من طبيعة شىء ما ٠ وهذا الشىء غير موجود فى عالم الواقع المتغير ، والتغير يجعل من المستحيل التأكد من طبيعته ولذلك فان الأشياء التى نعرفها بتأكد هى (المثل) فى علاقاتها المنتظمة ٠

وهناك درجتان فى التأكد من المعرفة : التأكد القـــائم عـــلى فرض ، والتأكد المطلق ٠ فما نعرفه عن العلوم والرياضـــــيات هو تأكد فرضى لأن تأكدنا من صدقها يعتمد على تأكدنا من صدق الفروض التى اشتقت منها ٠ أما التأكد المطلق فهو مرتبط بوعينا بفكرة الخير ٠ وهذا التأكد المطلق صعب المنال وهو يحول المعرفة الفرضية فى العلوم الى مطلقات ٠

التطبيقات التربوية :

تعرض أفلاطون فى كتابيه (الجمهورية) و (القوانين) الى مســـائل متصلة بالتربية اتصالا وثيقا ٠ ولعل أكثر اشكال الوجود البشرى قيمة فى

نظر أفلاطون هو التوافق بين الجمال والفضيلة عند الانسان ، فهـــو يؤكد ضرورة التفاعل بين الجسم والعقل كأساس للتربية ، ثم يوسع نطاق هـذا التوافق الى أن يشمل التوافق بين الجماعات بل فى العـــالم الميتافيزيقى · ويرى أفلاطون أن على الانسان أن يوفق بين غرائزه وارادته على هـــدى من مبادىء عالية ، وأن يخضع سلوكه تلقائيا لفضائل أربع هى : الحكمة وكبح جماح الشهوات والشجاعة والعدل · وهذا هو المواطن المثـــالى لأنه يعرف كيف يحكم وأن يحكم بالحق ·

وتؤسس الفلسفة الأفلاطونية فى التربية على هذه الفضائل الأربع · ويؤكد أفلاطون أن الفضيلة تتطلب اقتناعات خلقية ونوايا طيبة وضميرا حيا وقدرة على العمل السليم · كما أن ارتباط الخلق والمعرفة لازمان وضروريان · وفى رأى أفلاطون أن الكمال البشرى مستحيل ما لم يعرف الانســـان كيف يحول نواياه الى واقع · ولذلك فان بصيرة الانسان فى طبيعة الحياة يجب أن تكون قوة دافعة فى تربيته ، وقد منح الانسان وحده القدرة على الوصول الى الكمال والسمو بنفسه من خلال تبصره ومعرفته نفسه ومحاولته للحيـــاة الطيبة ، وهو قادر على تخطى عتبات ذاته الضيقة ويخضع مختارا لقوانين عامة عادلة ، وهذا هو الانسان الحر الفاضل ·

ويرى أفلاطون أن التربية هى عملية توجيه وجذب الأطفال الى الطريق الذى رسمته القوانين وأكدت عدالته خبرات ذوى العقول المفكرة المحنكة(١) ·

ولهذا فان أفلاطون فى كتابيه « الجمهورية » و « القوانين » كان يتصور مدينة مثالية فمزج بين فنى السياسة والتربية ، لأنه وجد كليهما يهدف نحو تحقيق النظام الأسمى فى الحياة · وقد حاول بعض الكتاب التربويين الحديثين تقسيم أفكار أفلاطون التربوية على هدى من التقسيمات الحاضرة ، أى المدرسة الابتدائية ثم الثانوية ثم العالية · ولكن مثل هذا التقسيم مآله الفشل لأنه من العبث تفسير الماضى بعقلية الحاضر ، كما أن أفلاطون نفسه القى الأهمية الكبرى على روح العملية لا على شكلها التنظيمى ·

أما عن نظام أفلاطون التربوى فيمكن ايجازه فيما يلى :

١ - من الميلاد الى سن السابعة عشرة : وتنقسم هـــذه المرحلة الى قسمين ويربى الأطفال على أيدى اخصائيين فى دور الحضانة العامة بعيدا عن

---

(١) Ulich, op. cit., p. 6.

الوالدين ، وفى الحضانة يهتم المشرفون بالنمو الجسمى للأطفال مستغلين اللعب والرياضة فى ذلك · وفى خلال القسم الثانى يتعلم الأطفال القراءة والكتابة ويتدربون على التذوق الموسيقى الذى يشمل الموسيقا واللغة والأدب بالمفهوم الحديث · والى جانب ذلك يتعلم الأطفال والغلمان العلوم والتمرينات البدنية وتخضع المناهج التى يدرسها المتعلمون لرقابة الدولة خضوعا كاملا فى محتواها وشكلها ·

على أن أفلاطون يحذر من الاسراف فى تربية الأجسام على حساب الموسيقى أو الاسراف فى ترقيق النفس بالموسيقا على حساب الجسم ·

ويصر أفلاطون على أن تكون التربية فى مراحلها الأولى أدنى الى الجد ، لأن هذه هى الوسيلة التى يتعرف بها الكبار على ميول الأطفال الطبيعية ، ثم ان أفلاطون يضيف الأخلاق الى الرياضة البدنية والموسيقا (أى تربية الجسم والعقل) · فهو يؤمن بالتكامل بين أفراد المجتمع ، أى ما له من حقوق وما عليه من واجبات · ويلوح أن أفلاطون يقصد بالأخلاق هنا ما يطلق عليه فى المصطلح الحديث ، العلاقات الانسانية وطرائق التعامل · ويهتم أفلاطون بالأخلاق على أساس أنها سوف تكبح جماح الشهوات عند الانسان وتدفعه الى طريق الحق والخير فتقل المشاجرات والمنازعات وبذلك لا تقوم ضرورة لقوات الشرطة لتقضى بين الناس وتقيم العدل ، وتحول أموال الشرطة الى أبواب أخرى تعود على المجتمع بالخير ·

وتعتمد الأخلاق على ركيزة يراها افلاطون حتمية أيضا وهى ايمان الناس باله محدد ، لا بقوة عليا مهيمنة ، أى بدين يهديهم سواء السبيل ، فيه من أساليب الثواب ما يشجع على عمل الخير ، وفيه من أساليب العقاب ما يكفل نهى الضال عن غيه وشروره · وهذا الثواب والعقاب يعضده افلاطون بحتمية خلود النفس حتى يطمئن المثيب الى أعماله ويخاف المذنب شر أفعاله ·

٢ ـ وتبدأ هذه المرحلة من ١٧ أو ١٨ · وفيها يدرب الشباب تدريبات عسكرية وجسمية عنيفة ، وتستمر هذه الدراسة الى سن العشرين ، وفى هذا السن يستبعد من الشباب من يثبت انه غير قادر على مواصلة الدرس والتحصيل وهؤلاء ينتظمون فى صفوف عامة الشعب الذين يكونون جماعات الزراع وأصحاب الحرف والمهن ·

هؤلاء وهم غالبية ، يكونون قاعدة تترسب فيها جماهير غفيرة يخضعون لشهواتهم(١) ٠

٣ ـ وبعد امتحان قاس صارم يسمح للناجحين بدراسة تستمر عشر سنوات تربى فيها أجسامهم وعقولهم ونفوسهم ، يتعلمون الرياضيات والفلك ولكنهم لا يتعلمونها بقصد الكسب المادى أو العمل اليدوى ، وانما للتمعن والتأمل المعنوى المجرد للعلوم البحتة ، فالقائد العسكرى يتعلم الأرقام حتى يستطيع تنظيم جنوده فى وحدات متناسقة فعالة ٠

٤ ـ وفى سن الثلاثين يجرى امتحان صعب ، وينضم الراسبون فيه الى طبقة الشرطة والجند الذين يتولون الذود عن حياض الوطن داخليا وخارجيا ٠ واعداد جيش وطنى قوى قصد به افلاطون أن يكون درعا للوقاية وقوة ارهابية للأعداد حتى لا يجسروا على تهديد الوطن ، فالجيش للدفاع لأن أفلاطون كان يمقت الحرب والقتال ٠

أما الناجحون فهم يواصلون الدراسة ، رجالا ونساء ، فى الفلسفة لمدة خمس سنوات ٠

٥ ـ وتبدأ المرحلة الخامسة من سن ٣٥ ـ ٥٠ وفيها يعين الناجحون فى المرحلة الرابعة فى مناصب حكومية حيث يتدربون على الحكم الصالح وسياسة الدولة تدريبا عمليا فى خضم الواقع حتى سن الخمسين ٠ وهذه هى السن التى يصلح فيه الدارس أن يكون ملكا فيلسوفا ، اذ كان من رأى أفلاطون أن يقوم على حكم الناس الفلاسفة لقدرتهم على فهم ارادة الله على حقيقتها ، وهم القادرون وحدهم على تفهم الأسرار الالهية وتبين مشيئة الخالق بل هم أعدل الناس وأكثرهم قدرة على نشر العدالة وتطبيقها ٠ والحكام الفلاسفة منزهون عن الشهوات الدنيوية التى يعرفها أفراد الطبقة الدنيا ، فهم لا يتملكون ، ويتناولون طعامهم فى مقاصف ولا يسكنون القصور وانما يبيتون فى قاعات مشتركة ٠ وجل تفكيرهم موجه لاسعاد مواطنيهم والعمل على راحتهم بنشر الخير والعدالة بينهم ٠

* * *

(١) على اسلام : فلاسفة اليونان الثلاثة : سقراط وافلاطون وأرسطو ٠

ينظر بعض المفكرين لآراء أفلاطون التربوية على أنهـا أفكار خياليـة تقصد عالما مثاليا كالمدينة المثالية التى كان أفلاطون يحلم بها · ولكن أحدا لا ينكر مدى ما لفلسفته من اشعاع غمرت به البشرية حيث أفادتها بخيرها وعدالتها وجمالها · ويشبه البعض أثر أفلاطون بالظل الذى يلجأ اليه العابر فى يوم قائظ ويجلس الى جدار مبنى كنيسة ، ثم يحتمى من البرد بهـذا المبنى ويجد فى داخله من الجمـال والقدسية ما يريح نفسه ، ولـكنه قد لا يسأل عن اسم الذى بنى هذه الكنيسة وأبدع بناءها اذ يختفى اسم صانع هذا المبنى وراء سحب التاريخ ·

وأثر أفكار أفلاطون على التربية كما نعهدها فى المدارس أثر قليل · ومع ذلك فقد تأثرت مدارس الأديرة المسيحية وجامعات العصـور الوسطى بآرائه · ويلوح أن القلة هى التى فهمت عمق نوايا أفلاطون ، فرأى الغالبية أن مبادئه التربوية غير عملية ولا تصلح للمربى · ومع ذلك فهناك اعجـاب بآرائه عن تعليم النساء ، وبمزجه بين التربيتين الرياضية للجسم والموسيقية للروح ، وباعتقاده أن التربية عملية مستمرة فيها جانب عالى واقعى ، وبفهمه عن الفيلسوف الحق ·

ويجد المربون صعوبة أو حتى استحالة فى تنفيـذ آراء أفلاطون التى حفلت بالمثاليات (اليوتوبيا) ، ومن المحتمل أنه هو نفسه كان يبتسم أحيانا للصورة المشرقة المتفائلة والخيالية التى كان يحلم بها ، ومع ذلك فكان ثمة أمل يراوده كما راود ملك صقلية الشاب ديونيسيوس الذى أرسل اليـه ليجعل منه ملكا فيلسوفا ، غير أنه ضاق ذرعا بأفلاطون وفلسفته وتعاليمه وكاد يبطش به لولا أن هرب ·

ولقد أعطى أفلاطون البشرية أملا وتفاؤلا ، تسعى اليه فى كل جيـل عبر التاريخ لتحقق شيئا منه ·· ولو قليلا ·

محاولة لتقييم التربية الاغريقية

من عل نرى أن التربية الآثينية ـ والمجتمع الآثينى والثقافة الآثينيـة التى أسست عليها تلك التربية ـ لم تكن ديمقراطية ، اذا قصدنا بديمقراطية التربية تكافؤ الفرص التعليمية للجميع · فلم ينظر الآثينيون ، وجـيرانهم الاسبرطيون ومن قبلهم الهنـود البراهمة ، ومن بعـدهم الرومان وأوربا العصور الوسطى ، لم ينظروا الى التربية على أنها حق لـكل الناس ، لـكل

افراد الشعب ، حق كاشعة الشمس والهواء · كانت التربية حقا استمتاعيا وزينة للمواطن الآثيني الذكر الحر · أما العبيد وغير الآثينيين والنساء فليس لهم ذلك الحق · وان سمح للنساء بتدريب على الشئون المنزلية والنسوية مع عناية بالجوانب الخلقية ، كما سمح لبعض أطفال غير الاغريق بدخول المدارس مع أطفال الاغريق ، فقد حجب حق التعليم كلية على الهيلوت وهم العبيد ·

قامت التربية الآثينية على أساس (الديمقراطية الارستوقراطية) · كانت أرستوقراطية لأنها امتياز لمجموعة قليلة العدد من سكان آثينا ، وديموقراطية لأنها - في نطاق هذه المجموعة من المواطنين الذكور الأحرار - ضمت كل أفراد هذه الجماعة المميزة · واذا قبلنا هذا الوصف وهو ديموقراطية داخل نطاق جماعة مميزة في المجتمع ، فلا يجب أن يغيب عن بالنا أنها ديموقراطية - في مفهومنا الحديث - لا يجوز ولا يجب الاعتراف بها ·

ويرى لوري(١) أن الدراسة غير المنحازة تكشف عن بناء اجتماعي وثقافي عند بعض الشعوب الشرقية أرقى مما كان موجودا في اسبرطة وآثينا · ويرى أن الاغريق مدينون للشرق بالكثير · فان مصر أمدتها بالأسس العلمية وافكارها ، كما أن الفينيقيين كان لهم الفضل فيما لدى الاغريق من أدوات التعليم كالحروف الهجائية ، كما أن الثقافة الهندية - الفارسية صدرت للاغريق المفاهيم الدينية ·

ونرى في التربية الاغريقية وخاصة الآثينية منها اهتماما بما يطلق عليه اليوم « الشخصية المتكاملة » ، فالكثير يقال عن اهتمام آثينا بالفردية ، واهتمام التربية بالموسيقى للروح والرياضة للبدن · ومع هذا فاننا لا نستطيع الا أن نتساءل عن معنى أن يقتصر ما يسمى بالفنون العقلية الحرة وتعليمها على المواطنين الأحرار ، وكانوا قلة ، أما الجوانب المهنية كالزراعة والحرفية وغيرها فكانت من نصيب غير الأحرار المواطنين · تربية عقلية للأحرار ومهنية للعبيد ··· وقد صار امتهان التربية المهنية اذ ارتبطت منذ أيام الاغريق بما يتعلمه العبيد وهم أدنى مكانة من السادة الأحرار الذين

---

(١) Laurie. S.S. : Historical Survey of pre-Cristian Education, p. 18.

وانظر كذلك

Willmana, Otto. The Science of Education, trans Felix M. Kilsh, pp. 18-19.

درسوا الفلسفة والشعر والموسيقى · لكن أحدا منهم لم يمتهن حرفة الموسيقا ولم يدرسها لعائد من ورائها أو مكسب يجنيه منها · فالكسب المادى شيمة للعبيد والاستمتاع هى صفة السادة الأحرار · وقد ساد هذا المفهوم قرونا طويلة مما حمل معه طبقية زائفة قوامها التعلم للزينة والمباهاة كما فعل أبناء الأرستوقراطية فى مجتمعات حديثة ، أما التعلم لكسب العيش فهذا أمر لم يقره أفراد من طبقة النبلاء والأشراف ·

* * *

واذا كانت روما قد غزت بجيوشها أرض الاغريق ، فقد غزت الثقافة الاغريقية روما وامبراطوريتها · ويطلق المهتمون بتاريخ التربية تعبير « التربية الهيللينية » على سيادة الثقافة الاغريقية فى فترة سادت فيها ربوع الشرق الأوسط وامتدت شرقا الى الهند وغربا مغطية الامبراطورية الرومانية· وقد بدأت هذه الفترة قبل غزو الرومان بلاد الاغريق وانتهت عام ٥٢٩ ميلادية · وعندما أغلق الامبراطور جستنيان أكاديميات أثينا ووضع التربية المسيحية تحت الاشراف المباشر للكنيسة · فى خلال هذه الفترة الطويلة صار للثقافة الاغريقية صدى عالمى ، بل انها ازدهرت بما قدمته الفلسفات من الاسكندرية وسوريا وفارس والهند ·

وقد شع النور العلمى والفلسفى فأضاء مدنا كثيرة وما فيها من مراكز للعلم ، منها الاسكندرية ونيسابور وأنطاكية وطرسوس ورودس ··· وغيرها مما يحق معه القول ان الشرق الأوسط تفجر بالأعمال الثقافية والبحث العلمى والتفكير الفلسفى · ولم يعد التفكير الخلاق والبحث المثمر قاصرين على مركز واحد ، ولم يعد هذا أو ذاك احتكارا لشعب معين أو مدينة معينة ، بل صار تزاور وانتقال للدراسة بين مراكز المعرفة ·

ان الغريب فى الأمر ·· وقد لا يكون غريبا ·· أن السادة الأحرار ما كانت حياتهم تقوم لولا ما أنتجه غير الأحرار من عملهم بأيديهم · وقد لا نشك لحظة أنه لو لم تتغذ البطون لما استطاعت العقول القيام بوظائفها ، فبدون الغذاء تتوقف الحياة · العقول تعمل فى أجسام حية ·

على أننا ـ للانصاف ـ نقول ان فكرة الآثينيين الأحرار كانت تقوم على أن للتربية تأثيرها المحرر على العقل البشرى ، وأن التربية هى هدف فى ذاتها بما تنتجه من نمو داخلى ويقظة وادراك ورؤية وبصيرة ·· أو كما قال

ديموقريطس « التعليم والطبيعـــة شيئان متشابهان ، لأن التعليم يغـــير الانسان · ومن خلال هذا التغير يكتسب الانسان طبيعة ثانية »(١) ·

ثم أليس رائعا ما قاله سقراط مشيرا فى براعة وحصافة الى أن الأخلاق هى أسمى وأعلى وأجـــل هدف للتربية ؟ ثم ما قاله رابطـا بين الفضيلة والمعرفة : هما قرينان متلازمان ، ويجب أن تؤدى المعرفة الى الفضيلة ، والا ما كانت معرفة ، تم اقتران الحمق بالجهل ·

---

١) ويلمان : لمرجع السابق ، ص ١٣٧ ·